

# عن الموت . . وصرخة الحياة

قصة بقلم فاروق واري

٢ - قوس قزح

مثل الذباب الملون الذي يحوم فوق الجيف ، تظل اسئلة اخي الصغير تنن فوق رأسي ، وكثيرا ما تجعلني اصطدم ، وانخبط ، واقع . احب اخي ، واجلب له الالعاب كلما اذهب الى المدينة . آخر مرة جلبت له بندقية ، كان ذلك منذ اشهر عديدة ، لكنه نظر اليها باهمال والقها جانبا ثم قال :

« ان البندقية خلقت للقتل ، فلماذا جلبت لي بندقية ؟ » . لم اجبه ، والقها جانبا ، ثم عاد الى لعبته القديمة التي تطلب وترقص .

من تساؤلات الاطفال نصل الى الاعماق الفلسفية ، هكذا يقول « ياسبرز » في كتابه الذي قرأته اخيرا . ومن تساؤلات اخي الصغير ، اصل دائما الى اعماق الاشياء ، والى اعماق ذاتي الجديدة .

الجذب هو الطابع المميز لوجودي ، فمنذ عشرين سنة اصيبت قريتنا بجذب قاتل ، تلف معظم محصول تلك السنة . يتحدثون في قريتنا كثيرا عن ذلك الشتاء الموحش . اما السنوات التي جاءت بعد ذلك الشتاء ، فقد كانت بها السماء شحيحة للغاية ، تجود علينا بما يمنحنا احساسا وهميا بالحياة . لقد ولدت انا مع مولد تلك السنين ، وعندما كبرت قليلا اخذت اسما ل كثيرا . . اتساءل عن عام الجذب الذي يتحدثون عنه .

لم اكن اعرف ان هذا العام سوف يجيء محملا بجذب مريع كالذي اصاب قريتنا منذ عشرين سنة . ادركت باللموس معنى الذي لم اكن اتصور حصوله خلال حقبة عمري التي كنت بهما اتمرع في مستنقعات الوحل والسخافة .

وعندما كنت اسمع الدعوات المنطلقة من حنجرة امام القرية وهو يدعو والمصلين يرددون : « اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القاننين » ، كنت اتصور الادعية دروعا صلبة تحميها من الجذب والظما .

ثمة اغنية يابسة ظلت تطوف في سماء قريتنا :

« وبلاد جاها مطر وبلاد ما جاها »

« وبلاد جاها كحيل العين رواها »

كنت اتساءل في اعماقي كثيرا عن كحيل العين ، وارسمه في ذهني فارسا عملاقا يسقينا لو اجدبت السماء . . لكن كحيل العين لم يات طوال تلك السنين الشحيحة .

وعندما انتشر الهشيم اليابس على صدر ارضنا ، اخذ كل شيء يتساقط عاريا امامي ويفوض في قرار معتم . . تساقطت كل السخافات . . والادعية الباردة . لم يتبق لي سوى مشجب اعلق عليه كل احلامي . ذلك ان يظل كحيل العين على قريتي ويروي ظما الارض . كدت انسى اخي الصغير واسئلته المحرجة ، عذرا ، فالحديث عن الجذب هو كل ما في قريتنا .

قبل ايام ، رأيت اخي الصغير يقرأ في كتاب ذي غلاف ملون ، وعندما رأني ، قلب الكتاب وتساءل :

« قرات في هذه القصة عن قوس قزح . . ما هو هذا القوس قزح ؟ » .

بدا لي السؤال لأول وهلة ابسط سؤال وجه لي من قبل اخي الصغير ، فهو بعيد عن التجريد الميتافيزيقي . . يختلف عن كسل

١ - وجوه في العاصفة

الليل يتململ ، والعاصفة تعربد ، وآلام المخاض تتفجر في جسد المرأة ، وينفجر صراخها في ارجاء المخيم . من عادة الرجل ان يجلس في المقهى وينتظر البشارة . . ولد . . بنت . لكنه الان - هو والرجال - والليل يتململ ، والعاصفة تعربد ، يفد خطواته بعنف على الارض الموحلة .

« لو ان حسان هنا . . آه . . لو انك هنا يا حسان . . لقد جاءت اللحظة التي كنت تنتظرها منذ زمن بعيد . . اين انت الان ؟ » . ( قالوا انها عاقر . . اتركها يا حسان وتزوج غيرها ، والف من تمنالك من بنات البلد . . انظر الى غيرك يا حسان . . انهم يصفرونك سنا ، واولادهم اكثر من الدم المتساقط عن شجرة كبيرة . . ستخسر زينة الحياة الدنيا ، وتموت دون ان تترك على الارض من يخلف اسمك ، فكان حسان لا جاء على الارض ولا راح . . فكر في نفسك يا حسان . . فكر في نفسك ) .

سائل اصفر يندلق على فخذيها . ماء النهر يصل الى قمة فخذي ، بينما ساعده القوي ممسك بالكلاشينكوف المسنود على كتفه . « ترى اين تكون الان في عتمة الليل والعواصف . . بعد قليل ، سوف يصبح لك طفل . . لو تراه عند ولادته يا حسان . . آه . . لو تراه » .

العاصفة تكاد تقتلع الخيام التي ترتعش بشدة . وجوه الرجال تذوب في العاصفة . قطعوا المخاض ، وتابعت خطواتهم سيرها العنيد . ( لم يكن يخطر ببالك انه سوف يكون لك ابن في يوم من الايام ، لكنك رفضت ان تتزوج مرة اخرى . . يومها قال لك المرحوم والدك : « انت يا حسان عنيد كالبعل » . ويوم جاءك زوجك وانياتك انها حامل ، لم تصدق في البداية . . فرحت فرحا طفوليا . ومنذ ذلك اليوم وضعت فلم رصاص بجانب ورقة التقويم السنوي ، واخذت تشطب كل يوم يمر ) .

جسدها يتشنج ، والقابلة تقول لها ان تصفط على نفسها اكثر ، تصفط . . تتشنج . . تصرخ . الاصابع تتشنج على الزناد ، وموعد مرور دورية العدو يقترب . . دفقة من الدم الحار تندفع الى وجهها المكتر . جسدها يسزداد تشنجا . . شعر اسود لزوج يطل الى العالم .

من بعيد ، تظل انوار اللوربة . الرجال مناهبون . اللوربة تقترب ، تقترب ، تقترب : - « اضرب » .

يتمزق الصمت ، والظلام ، والبرد . . رأس المولود اخذ يبدو اكثر وضوحا . . يتزلق ببطء . . ببطء ، والمرأة تصرخ .

يصرخ صرخة مكتومة ، ثم يتحسس صدره . الدم الحار يفرق كفه . يحاول التشبث بالكلاشينكوف . يسقط . . لا يتحرك . الدم ينساب على فخذيها ، بينما الطفل الوليد يصرخ . . يصرخ . . يصرخ .

اسئلته السابقة . اخذت انحدث ، اصف له مهرجان الالوان فسي السماء . كنت انحدث بطلاقة ، وانذكر العبارات التي كنت قد كتبها لمدرس الانشاء في هذا الموضوع ونلت عليها درجة جيدة . ( الذي اريد ان اعترف به هو انني لم ار قوس قزح في حياتي ) .

لا اعرف اذا ما كان اخي قد استوعب ما قلت ، لكن عينيهِ كالتنا تمطران احزانا خريفية اجهل كنهها .

« وهل سيظهر قوس قزح على سماء قريننا في يوم من الايام ؟ » .

لم استطع الاجابة ، وغرست انامي في شعر اخي ، ثم هزرت رأسه وذهبت .

لم اكن اتصور ان الدخان الخفيف الذي يتصاعد في سماء قريننا شيئاً فشيئاً ، يمكن ان يكون غيوماً مشبعة بالمطر .

اليوم فقط ، رأيت الفيوم متكافة بشكل رائع ، رأيتها فارساً عملاقاً يمتطي جواده .. هكذا رأها كل اهل القرية . وخطر في ذهني كحيل العين .

اليوم فقط امطرت .. امطرت بسخاء .. ركضت الى اخي الصغير لاقول له ان يرقب السماء ، فسيظهر قوس قزح .. قوس قزح لا يظهر الا بعد المطر .

وصلت الى اخي .. وجدته قد حطم كل العابه ، الا البندقية .. كان متشبهاً بها ، بينما السماء في الخارج تمطر .. تمطر .. تمطر .

### ٣ - المسرح ينزل مرتين

القبار الثقيل يترسب على خشبة المسرح . المتفرجون ذوو الشباب الرثة يرتمون متهاكين في اماكنهم كالواح الصفيح ألبارد ، ويحدقون ببلالة الى الممثلين المقنعين الذين يتحلقون حول جثة تنزف منها دماء غزيرة .

المسرح هادئ ، تنزل قبل قليل ، وسقط رجل ، لكنسه الان هادئ . عيون المتفرجين الحزينة معلقة في الظلام .. نظراتهم تجوس ارجاء المسرح . لحظات ترقب رهيبية تأكلهم ، والجوع يقتات من امعائهم الخاوية . الدم المسفوح على ارضية المسرح اخذ يشكل بقعة على شكل اخطبوط .

المثلون يتهايمسون بكلمات مخنوقة لم يسمعاها المتفرجون . ثم

تعلو صيحاتهم في جدال عنيف مبهم يصل في ذروته الى حد الشتمية ، ثم ما يلبث ان ينقلب الى كلمات حب ومودة . كسل ذلك والدم ينزف وصورة الاخطبوط تزداد وضوحاً .

الى جانب الممثلين نصبت قدر تحتها نار متقدة ، ومن القدر يتصاعد بخار كثيف ، اخذ يفزل ستارا على واجهة المسرح .

وقف احد الممثلين على حافة المسرح ، ثم تحسس قناعه ، واخذ يتكلم بصوت جهوري الى المتفرجين ، الذين لفرط انتظارهم ، غطوا في نوم عميق . ثم اشار الممثل الى القدر وهو يتكلم بحرارة مصطنعة:

« ايها الاخوة » .

المتفرجون يحاولون عيشاً فتح اعينهم التي اثقلها النوم . والممثل يتابع كلامه :

« ان نضوج ما في هذه القدر ، لهو كفيل باطعام الجياع ، واعادة الحياة الى هذه الجثة الملقاة امامنا » .

صفق المتفرجون ، وهم مشدودون الى نوم عميق ، ثم وقف ممثل اخر وتكلم ، ثم وقف ثالث ، ورابع ، وخامس ، و .. ثالث عشر ..

والمتفرجون يصفقون وهم نائمون . اما الدم ، فما زال ينبس غزيراً من الجثة ، والاخطبوط ما زال يكبر ويزداد وضوحاً .

الزمن يمر بطيئاً متثاقلاً ، والعناكب اخذت تعشش في زوايا المسرح . المثلون يتهايمسون . والمتفرجون نائمون . والقدر ما زالت تظلي فوق النار . والدم ما زال ينزف بغزارة .. اما الاخطبوط ، فقد اخذ يتحرك .. ينتفض ، واذعه الطويلة المتشعبة بدأت تمتد الى

الممثلين الذين اخذوا يتراجعون بسرعة .. لكن اذرع الاخطبوط طويلة ومتشعبة ، التفت حول الممثلين وكبلتهم .

المسرح يضج بزلال اخر عنيف ، والمثلون مكبلون . القدر تقع .. كل ما فيها يتدلق على ارضية المسرح .

المتفرجون يتململون ، ثم يقتحون عيونهم ويفركونها .. تتساقط منها حبات كبيرة من القذى المتخثر .

يهب المتفرجون الى المسرح بعنف . يتظلمون الى محتويات القدر المندلقة .. لم يكن نمة الا حصى وماء يقلي . يستلون اسلحتهم ،

وبعنف ، يقاومون الاخطبوط .. بينما اقنعة الممثلين تتساقط .. تتساقط .. تتساقط .

عمان

### فاروق وادي

( الجامعة الاردنية )

# شرح جثة الاستعمار

تأليف غي دوبوشير  
ترجمة ادوار الخراط

صدر حديثاً :

هذا الكتاب الجديد محاولة لتعريف الاستعمار واثبات انه ظاهرة اوروبية محض ، وهو يتلمس الصلة بين التعمير والاستعمار ، ويعقد فصلاً مطولاً عن التفرقة بين الاستعمار والامبريالية ، ثم يشرح كيف بسطت المسيحية ظلها على اوروبا ، وصلة ذلك بالفزوات التي كانت تتخذ من الدين قناعاً لاختفاء الجوانب الاقتصادية الاساسية لظاهرة الاستعمار . ويمثل على ذلك بروح الحروب الصليبية ، في حين يثبت بالبراهين والادلة ان التوسع الاسلامي ليس بظاهرة استعمارية لا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية . ويتتبع الكتاب تطور ظاهرة الاستعمار عبر عصر النهضة وبدء ظهور الرأسمالية ويقوم بتحليل عميق للصلات بين الرق وبدء عصر الرأسمالية وظهور الطبقات العاملة والتوسع الرأسمالي في آسيا وافريقيا ، وينتهي بتحليل سقوط ظاهرة الاستعمار .

منشورات دار الآداب